الفصل التاسع

أغاريد الحب والوداع

فى سنواته العشر الأخيرة «١٩٧٠-١٩٨٠» عاش أحمد عبدالمجيد «كالوتر المشدود» يضنيه الجمال، ويعذبه الحرمان وتضحكه البسمة واللمحة، وكأنه يعشق لأول مرة وكأنه قد نسى كل ما مر به من غراميات وقصص حب تراوحت فيها أنغام الوصال والهجر واللقاء والحنين والفراق والغضب والرضا، وعاش تجربة حبه الكبير والأخيرة مع تلك الملهمة المثقفة الجميلة «سلوى» والتى جمعت فى قصة حبه لها مشاعر المحب والأب والصديق فأحالت حياته أتونا من مشاعر الرضا والغضب والغيرة والسهاد والحنين والتمرد!

لقد جاءه هذا الحب فى خريف العمر بعد أن جاوز السبعين، وكان يعانى فى تلك الحقبة من معاناة الوحدة، فلا ولد يؤنسه، ولا عمل يشغله سوى القراءة والكتابة ولا صديق مخلص يخفف عنه العناء إلا فيما ندر، فجاءت هذه العاطفة وكله أمل أن تملأ حياته بالبهجة والرضا والسعادة، لكنه عانى فى هذا الحب من العذاب والحرمان، وكان يردد دائماً لى أن بعض الأدباء يظنون أن أقوى حب وأبقاه وأمتعه هو الحب المحروم، ذلك الحب الصامت اليائس المستوحش الذى يرسل أروع الصرخات وأعذب الأنغام لكن ليتهم يعلمون مدى عذاب مثل ذلك المحب وضناه، وتقلبه على نيران الغيرة والسهاد والحنين والحرمان! وكنت أنظر إليه فى تلك الحقبة وكأنه طائر جريح يغنى طول حياته بمفرده، وإن كان يعزينا دائماً أنه ليس وحده الذى يتعذب، بل كانت ضريبة حب العظماء دائماً هكذا، فهم لا يحبون بالجسد قدر ما يحبون بالقلب،

فقد استطاع أحمد عبدالمجيد فى حبه المحروم أن يتغلب على الأنانية، وحاول أن يقهر الغيرة، وأن يسمو بمشاعر الوجدان والروح، فقد تفوق على الغيرة فى حبه النقى للسيدة «سلوى» الذى كان يعلم حق العلم أنها تحب زوجها وتخلص له، فلم يتبرم بها ولم يسخط عليها بل قدر فيها سمو أخلاقها ونبل طباعها وكان سعيداً برؤيتها مطمئنة وسعيدة فى صحبة سواه فكان أحمد عبدالمجيد مثله مثل عظماء العشاق الذين عبر عنهم الكاتب إبراهيم المصرى، فكانوا مضرب المثل فى الحب الصحيح: الحب المنزه عن الأنانية والغيرة، الحب القائم على إسعاد الحبيب، الحب النابع من الروح لا من الجسد فقط، الصادر عن الرغبة العميقة، فى الولاء المطلق والتضحية المطلقة وقد بدأ هذا الحب عام ١٩٧٦ بعد صدور كتابه «رحلة مع الظرفاء» حيث بادرت تلك الملهمة الأديبة المثقفة بالاتصال به تليفونياً لتهنئته بكتابه الجديد ومن هنا بدأت شرارة ذلك الحب وقد مر هذا الحب السامى العفيف من شاعرنا المحب وملهمته بأطوار عديدة من القرب والبعد والوصال والهجر والثقة والشك، والاقتراب والبعاد، ومن العذاب والحرمان رصدته رسائله لى فى تلك الحقبة كما سجلته قصائده العاطفية التى قصرها خلال تلك السنوات من خريف عمره على ذلك الحب الرائع النادر.

يقول فى أحد رسائله لى «إننى إذا التقيت بمن أهواها شردت عنى كل ملكات السمع والبصر والكلام، فلا أرى منها شيئاً، ولا أسمع فيها حديثاً، ولا أجرى معها كلاماً أو أبثها لوعة تحرق كبدى، ولا يسعنى إلا أن أقول وأنا منصرف عنها:

وإنـى لينسينى لقاؤك كلما　　لقيتك يوماً أن أبثك مابيا

وكان أحياناً يعانى من صدودها وشكوكها فى مراميه، فكان لا يريد إلا العاطفة السامية، والحب العفيف، فكان فى حبه مثل حب الشاعر العاشق جميل لملهمته بثينة:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى　　لو أبصره الواشى لقرّت بلابله

بلا.. وبأن لا أستطيع.. وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخـــره لا نلتقى وأوائـلـه

وكت يقول لى حول معاناته من شكوكها: «ليس فى استطاعة أى رجل أن يقنع أى امرأة، بأنه لا يطمح منها فى شىء، وربما كانت جناية بعض الرجال قد امتد أثرها إلى قلب كل امرأة، فيذهب البرىء بجريرة المذنب».

وقد تجرد شاعرنا المحب من مشاعر الغيرة التى كان يرى أنها نوع من شعور المالك على أرضه أو عقاره، وهذا الشعور بالملكية يولد فى نفس الغيور تصوراً حسياً وشهوياً حاداً لكن شاعرنا ارتفع بحبه عن هذه الغيرة وكان يقول لى:

لا مكان عندى للغيرة، فقد غدوت كالناظر للقمر الذى يشركنى إليه كل بصر، وهو يسطع على القصر والكوخ، ويراه ويسعد بضيائه الغنى والفقير، فأنا أراها مثلما يراها غيرى، والسعيد والشقى سواء فى الاستمتاع بهذا الفيض الباهر من الخالق القدير».

ورغم معاناته فى حبه مما كان يراه. تلوناً وتبدلاً فى أطوار ملهمته، إلا أنه كان يسلم بهذه الأطوار العجيبة باعتبارها قضاء وقدراً، كتب فى أحد خواطره يقول:[1]

قال لى قلبى ذات مساء: «إنها تضن عليك بدقائق معدودات، هى كل ما تأمل أن يصيبك من رؤيتها وإذا حادثتك، جنح حديثها إلى الهمس والخفوت، وإذا جادت عليك بنظرة ما اعترى بصرها شرود وغموض، يحجبان عنك ما كنت تطمع فى أن تراه طى عينيها من خفى السرائر، فقلت لقلبى: «عجيب منك يا لائمى أن تكون قاتلى، وتسألنى كيف رضيت أن أكون قتيلاً، فلم يكن لى من حيلة فهذا قدرك، وهذا قدرى».

وعندما أحب أحمد عبدالمجيد فى خريف عمره تلك الملهمة الحسناء المثقفة، أحس أن كل شىء حوله يتبدل، وأن الصلة قد انقطعت بينه وبين ماضيه، وأنه قد بدأ

(١) من أوراقه المخطوطة المطوية/ عام١٩٧٩

يولد من جديد على حياة لا عهد له بها، فاتخذ كل شيء حوله شكلاً رائعاً جميلاً يبهره ويفتنه، مثل الأشياء والأشخاص، والأضواء والألوان، والمشاعر والأخيلة، حتى أنوثة المرأة وسحرها لا يفتنه لأنه ينظر إلى ملهمته كقديسة، فقد كتب إلىّ يقول:[1]

«تختفى أمام عينى أنوثتها، حتى لو نثرتها من حولى نثراً، ولا تبدو لى منها إلا عفة الحركة، وطهارة اللسان ونقاء السيرة والسريرة، حتى قلت فى ذلك مترجماً عن مشاعرى، ومنساقاً وراء صدق أحاسيسى:

تـدلـلـت فـلـم أغـر ... كـلا ولم ولـن ولا
كـأنـهـا مـن طـهـرهـا ... أطـهـر مـن أن تخجلا

وذات يوم رأيتها وقد خلعت عنها ثوب الجلال، ونضت عنها غلالة الحشمة الأصيلة، وكانت بما كانت تأتيه من دلال مجلوب، تعبث بشخص بعينه، لم يكن ليتأثر بما كانت تصنع، وكانت تظن أنها بهذا السلاح الأنثوى الفريد، تصيب منه مقتلاً، ولكن سهمها طاش وأصابنى وحدى، وسرعان ما أفقت من وقعه الأليم ما دمت عالماً بما تقصد، فهى قديسة لا تعبث»!

ومن خواطره الذاتية التى كتبها من وحى ملهمته الحسناء:

«لم يطل مكوثها إلى جوارى إلا ثوان، رغم غيبتى عنها شهوراً طوالاً، ومضت تلك الثوانى الغالية المجنحة دون أن تترك من الأثر إلا مثلما تتركه الفراشة على براعم الأزهار».

وكان يرى أن الحب يسمو فوق كل المشاعر:

«الحب يطفو فوق كل عاطفة ويسمو فوق كل المشاعر ولا يخفى على أى عين بصيرة والمحب الصادق يستمر فى هواه كما يستمر طلوع الصباح كل صباح، دون أن تسأم منه النفوس وقديماً قال عاشق فيمن أحب:

(١) من رسائل الشاعر للمؤلف/ يناير ١٩٧٨

أهى شيء لا تسأم العين منه أم له فى كل ساعة تجديد؟

وكان يرى أن حبه لها هو حب خالد باق حتى نهاية العمر:[1]

«بحثت عن نفسى فى دارى فلم أجدها، وبحثت عنها عند صحبى فلم ألقها، وسألت عنها الرائح والغادى، فما دلنى أحد ممن سألت:

وكان علىّ أن أقصد من تعلقت بها روحى وقلبى فوجدتها عندها هائمة طائفة حولها، حول من آثرتها من دون العالمين، وهى عنها لاهية تنظر ولا ترى وتسمع ولا تدرك، كما كانت نفسى فى شغل عنى، وكأنما لا تعرفنى.

«ولما أردت أن أصحبها وأنا منصرف، قالت لى نفسى، أذهب وحدك، إننى هنا باقية، إلى أن تنتهى أيامى فى هذا الوجود».

ويصف معاناته فى حبها، وعذابه من هجرها:

«إن خيالها لا يغيب عنى فى صحو أو فى منام، وفى تأمل أو فى غفوة. وفى قيام أو قعود، ولست أدرى إلى أين المفر منه وكيف أنسى الذى لا شيء ينسيه؟

وكان يرى أن حبه لها لا يكفيه، وأنه لا يعنيه فى الدنيا قارئ أو قارئة لما يكتبه من شعر ونثر إلاها، وسيظل يحبها ما دام فى عروقه نبض الحياة، حيث قال فى رسالة لى عام ١٩٧٩:[2]

«أنت تعلم أنى حفى بكل مطرب من القول، جالب للسرور، وإذا بى أرانى كمن أصابه زكام أفقده لذة التلذذ، وانعدم عنده مذاق كل شيء حتى النظم والكتابة، والقول والقراءة، افتقدتها جميعاً، فما أطيق نظماً أو نثراً، وأمسك خيالى عن التحليق، منذ أن غدا لا يطير ولا يسير، وأعرضت عن مواكب الدنيا إذ هى استأذنت فى طرق بابى.

(١) من أوراقه المطوية.

(٢) من رسائله إلى المؤلف/ ١٩٧٩

وعزفت راغباً عن الكثير، راضياً قانعاً باليسير الأقل، وحسبى من الحياة قارئة واحدة، أبثها ما يجيش به فكرى، إنها قارئتى الأديبة اللماحة الوحيدة، التى اكتفيت بها من دون سائر البشر ولست أطمع منها فى أكثر من أن تشرّف قلمى بقراءة ما يسطر، وتكرّم فكرى بما يترجم به عما أحسه نحوها من حنان نابع من قلب أب كليم، لم يبق فى نبضاته إلا ترديد اسمها وكأنه الترتيل، فقد حرم الذرية وحرمته هى الحنان!

وليتنى أقوى على أن أعفيها من هذا الذى أطمع فيه، ولن يسعفنى فى هذا الموقف، إلا أن تخمد حركة يدى عندما يخمد فىّ كل ما يبعث على الوجود، وما أعظم المتنبى فى موقف مماثل عندما قال:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ الأمانيا

وكان يرى أن حبها يساوى الحياة كلها ويجعل للحياة مذاقاً ومعنى إذا ما تجاوبت روحه مع روحها:

«يقولون إن الحياة لا تساوى شيئاً ولكن لا يوجد شىء يساوى الحياة»

«وأنا أقول إن الحب لا يساوى شيئاً إذا كان من طرف يحترق، وطرف آخر يسعد بما يرى ولكنه إذا لقى استجابة عفة طاهرة، وتعاطفاً فكرياً يسمو فوق كل هوى وغاية، واستقبالاً رحيماً واسياً، ووداعاً حنوناً مشفقاً، فإنه يساوى الحياة كلها، وكل ما بعد الحياة».

وقد ألهمه هذا الحب العديد من أغاريد الحب والجمال، تتماوج فيها ألوان قوس قزح، وأنغام السيمفونية بكل ما فى هذا الحب من رضا وخصام ولقاء وهجر، وعذاب وحنين.

يناجى شاعرنا ملهمته، فيخاطب عينيها قائلاً:[1]

(١) من ديوان نجوى/ مخطوط

خلع الشباب عليك ... أزهى ثوبه
ونثر الربيع عليك ... حلو شبابه
فجمعت أزهار ... الصبا وربيعه
وكساك خفة ... ظله وإهابه
وأنا سلكت ... إليك أخطر مفرق
ورضيته ... بعقابه وثوابه
ما حيلتى وهواك ... نفاذ الجوى
أرضى به ... وبناره وعذابه
يا من لها فى ... القلب أكرم موضع
ما أهنأ القلب ... الذى يزهو به
ومكان خطوك ... حيث أنت مقدس
أرتاده ما دمت ... فى محرابه
من أجل لحظيك ... اللذين تآمرا
أو ما كفاه ... القلب من أحبابه
أفديك إن ... أشقيتنى أوزدتنى
ألماً فذاك ... جزاء فاقد قلبه
إنى تركت ... القلب عندك يجتنى
من فضل عطفك ... أو قليل نصيبه
صونيه عند ... وفائه وولائه
فهو الوفى ... وإن أطاح بربه

وفى اللقاء الأول بها وجد فى عينيها السحر والكبرياء والإلهام الذى افتقده طويلا فقال:[١]

وزائرة ردت على ... الروح روحها
فآبت إلى نفسى ... البشاشة والبشر
وأيقظت الأفراح ... منى بعد غفوة
وفى القلب هم ... ضاق من همِّه الصدر
تطارحنى صفو ... الحديث كأنها
حمامة أيك طاب ... من شجوها الفكر
كأن المعانى في ... رشاقة لفظها
جواهر يزهو ... من مفاتنها الثغر
فيرتد عنها الطرف ... يخشى مغبة
فكم نظرة ... أودى بصاحبها الهجر

ثم يصف كيف شده إليها شموخ كبريائها وذكاء قلبها الذى أفصح عنه سحر عينيها النجلاوين:

يلوح لى ذكاء القلب ... من نور عينيها
يصاحبه كبر ... يتيه به الكبر
وساعات سعدى ... فى حياتى قليلة
وبين يديك الدهر ... والقدر والغمر
لدن زرتنى لم ... يقرب النوم مضجعى

(١) من ديوان نجوى/ قصيدة قفانبك/ مخطوط

obeikandi.com

ولم يدر راق كيف قيدنى السحر
وأسلم أمرى إن ألح بى الجوى
وأبعث طيفى منذ أن شفَّه الدهر
تمنيت لو قد كان فى القلب موضع
لسهميك كيلا يستبد به الغير
قفانبك يا قلبى وعينى فما جرى
على غيرها دمعى ولا همنى العمر
وفى القلب حاجات وفى النفس مثلها
وفى العقل نهى ضاق من أمره الصبر

وتصبح آماله فى الدنو منها غاية المنى، وأن يسعد بحبها حتى يرى أن لمس النجوم أقرب له من وصالها:

أرى النجم أدنى لى إذا رمت لمسهُ
ودون مغانيها على قربها عسر
فياطيفُ زرها حيث تلقى جمالها
هو القمر المد الذى ما له جزر
فرفقاً إذا ما جاءك الطيف زائراً
بقلبى، فقلبى صار من بعدكم طير

وفى لحظة حزن وأسى يوجه إليها عتاب المحب المعذب الشقى بحبه لمهمته الذى يرجو حنانه ووصلها:[1]

(١) من ديوان نجوى/ مخطوط

إذا كنتُ مظلوماً ... فكن أنت ظالمى
إذا كان فى الحالين ... لابد من ظلمى
فقد كنت أرجو ... فى رحابك موضعاً
ألوذ به من هم ... ليلى ومن يومى
لدن كان ليلى ... أسود الحظ حالكاً
ومذ كان يومى ... فى جحيم من الهم
فألقيت نفسى ... فى جوارك مبعداً
وألفيت قلبى بعد ... جورك فى سقم
وكنت إذا طافت ... بنفسى رغيبة
تباعد ما بينى ... وبين الذى أرمى
وألقاك تبغى ... إن تمنيت بغية
وكل الذى أبنيه ... ينهار بالهدم
وكنت، وما زلت ... الذى كنت، ظالما
ساؤك مهما طال ... بى الهم لا تهمى
حنانيك يا من كنت ... بل أنت لم تزل
طلابى الذى أضحى ... سراباً من الوهم
وكنت على قرب ... المزارات قاسياً
وصرت قصيا ... قاصى البر واليم
فإن كنتُ مظلوماً ... فكن أنت ظالمى
ولا تخش بأساً من ... عتابى ومن لومى

ولا يجد وحياً إلا وحيها، ولا يناجى طيفاً إلا طيفها الذى يسعد روحه، ويبهج قلبه:[1]

أنا فى انتظارك ... منذ كان رجاء
فكأنك السراء ... والضراء
أنا منذ ساعة ... مولدى مترقب
للقاء وجهك ... والمنى أهواء
حتى أطل ... مهند متوثب[2]
من جفن عينك ... بارق وضاء
ولقد رآنى ... واستراح لنظرتى
إن العظائم ... كفؤها العظماء
والسيف يأبى ... أن ينازل هيِّناً
مستضعفاً لكن ... له أكفاء
والله، مذ خلق ... العيون فواتكاً
كانت ضحايا ... فتكها الشعراء

ثم يرى أن قلبه لبى نداء سحرها، لأنها أنس الحياة وخمر السعادة والإلهام رغم عذابه فى حبها:

لبّاك قلبى ... عندما أيقظته
وسرى إليك ... وفى الهوى إسراء
لما رآك ... خريدة مختالة

(١) ديوان نجوى «مخطوط»/ قصيدة «وحيى»
(٢) المهند: هو السيف

أدناه منك   تعفف وذكاء
أنت الحياة   وأنت مجلى أنسها
والخمر والأقداح   والندماء
فأتيت بابك   شاعراً أتلو الذى
ألهمتنيه وفى   العيون دعاء
وتقابلت نظراتنا   فى نشوة
ولكم تغنت   أعين خرساء
كنا إذا خفنا   الحواسد نلتقى
فى نظرة حارت   لها العرفاء
فيها الحنين وفى   الحنين رسائل
عصماء، يعجز   دونها البلغاء
والشعر آية حبنا   الكبرى، وهل
بعد القريض   فصاحة وجلاء
ولأنت وحيى منذ   أن عرف الهوى
قلبى وحن   لعشقه الرحماء
ورنين صوتك   وقعه فى مسمعى
شدو البلابل   فى الربى، وغناء
يا بهجة القلب   أخطرى فى أعينى
فلأنت فى لحظى   سنا وضياء

ويتخيل أن نظرات الحب والنجوى بينهما تتكلم بلغة الحنين والحب، فملهمته

obeikandl.com

هى بهجة القلب والروح والفؤاد: ويجعل من طيف المحبوب معبده المقدس الذى يرتل فيه نجواه وأغاريد رغم صدودها ودلالها[1].

شاركتنى فيك العيون وقلبى ... لم يشاركه فى الهموم عداى
أى هم أشد من أن أعيش ... مشوقاً على فراش ضناى
وأرى حولك العيون عطاشا ... يتقاسمن فى ازدحام دواى
ضاع لحظى بين العيون وأمسى ... يشتهى الطيف حين عز مناى
وأنا الصادق الوداد إذا حال ... محب عن الوداد خلاى
كل حسن يفنى فتمضى معانيه ... كأن لم يكن طلاب سواى
غير أنى أرى لحسنك معنى ... خالداً، ما غاص فى مرآى
كلما عب فى جمالك لحظى ... ظل روحى معطشا ولهاى[2]
ويرى فيك ما يراه اشتياقى ... حيث يشقى معذباً برضاى
أنت فى معبدى نشيد وجرس ... علوى اللحون يروى أساى
أنا إن غرت لا أغار على حبك ... إلا من لهفتى وهواى
حسبك اليوم غيرتى من عيونى ... لهف نفسى فكيف من أعداى
آه لو أعلم المخبأ من أمرى ... وأدرى النصيب أو منتهاى
إننى إن قدرتُ، عشت قرير العين ... أمضى على هدى من نهاى
غير أنى فى حيرة والذى يبقى لك ... الحب حيرتى وجواى
وسواء لدىّ عَيْشى سعيداً ... أو شقياً، ما دمت أنت هواى

(١) من ديوان «نجوى شاعر» قصيدة خلود.
(٢) لهاى: اللهاة أى الحلق.

ويظل يعانى من هذا الحب الذى أخذ من عينيه النوم وأبعد عن قلبه الطمأنينة، وحول نهاره ليلاً وليله نهاراً، فكتب يشكو عذابه وضناه:[1]

كم أضل الطريق خطوتى ... فلم أعرف يوماً إلى السواء سبيلا
إن بدا لى أنى أمنت لنور ... وتلمست منه ضوءاً نحيلا
نصب التيه من حواليك سداً ... لا شبيهاً لليله أو مثيلا
لا يبالى إن جاز غايته القصوى ... فكان المضل والتضليلا
أنت عرفته الطريق إلى سد ... طريقى إليك ميلاً فميلا
فأنا منك تائه فى البوادى ... سال وعيى على الطريق مسيلا
كلما رمتُ فى رحابك ضوءاً ... كنت أنت الظلام والمجهولا
وكأنى فيما ابتغيت وأرجو ... مستحيل أو أطلب المستحيلا

أغاريد الرحيل

كانت السنوات الخمس الأخيرة فى حياة أحمد عبدالمجيد «١٩٧٥-١٩٨٠» فترة معاناة وضنى تقلب فيها على أتون من القلق والشك والسهاد، بسبب هذا الحب المحروم اليائس الذى جاءه فى خريف العمر، والذى كان ينشد فيه السلوى وتعويض ما فاته من الاستمتاع بالأبوة التى حرم منها كان يعيش هو والسيدة زوجته بشقته بشارع قصر العينى، وأذكر أنه قال لى ذات مرة والمرارة تغمر صوته:

«يبدو أن الله قد عاقبنى على أننى بطرت على الأولاد، فلم أرزق بولد يؤنس حياتى فى سنوات عمرى الأخيرة»!.

وعندما دخل الحب حياته عام ١٩٧٦ نشد فى هذه العاطفة الحب الروحى،

(١) من ديوان نجوى «مخطوط»/ قصيدة ضليل

والأبوة لها، لكن تقلب أطوار الحبيبة، وإحساسه بأنها لم تفهم عاطفته الأبوية الفهم الصحيح، وغيرته التى كانت تستبد به بسبب طبيعة عمل الملهمة التى كانت تجعلها تتعامل مع العديد من الشخصيات كل ذلك أثر فى نفسيته وجعل أعصابه مشدودة، فى تلك الحقبة، وأذكر أننى تعرضت منه لإحدى تلك الانفلاتات العصبية فى فترة معاناته وإن كان قد اعتذر فيما بعد عن ذلك.

وكان كثير الشكوى والأسى على ما يعانيه من تقلب أطوار ملهمته بجمالها الشامخ الرصين فكتب يقول لى فى إحدى رسائله:[1]

«كلما عانيت من حب من أحببت، وصادفنى منها ما كنت على ثقة من أنى ملاقيه، أعود من لقائها وأنا مهيض الجناح، كسير الخاطر، شارد الفكر، متجدد الأمل فى لقاء قد يكون أكثر حظاً، كالمقامر الذى يتمنى كسباً بعد كل خسارة، ثم أرانى أبحر فى تيار كلمة عميقة رقيقة مفادها: «أزكى الورود أكثرها شوكاً»»!

وكتب يستجديها الوصال والحنان:

ليلاى.. ليتك ليلة	تسقيننى خمر الرضاب
يا من سعدت بقربها	وأضر بى لمع السراب
لا تعذلينى إننى	شيخ تمرس بالعذاب
يشكوك ما صنع المشيب	به وما صنع الشباب

وعندما أضنته تلك العاطفة وعذبت قلبه المفتون انفرد يحاور قلبه وقد أرقه هذا الحب وسهده فى هذا الحوار الصريح المليء بالشجن والأسى:[2]

(١) من رسائل الشاعر للمؤلف/ نوفمبر ١٩٧٩

(٢) من أوراقه المطوية/ ١٩٧٩

هو: أما كفى يا قلب ما تلاقى.. تعال معى نعود من حيث كنا نعيش، على ذكريات غدت طيوفاً وأشباحاً، تؤنسنا حينا، وتؤرقنا أحياناً، ولكنها لم تكن بعد أن تولى زمانها، وخمدت نارها، تحرق بلظاها حشاشتى، وتأسر فكرى، وتسلب الكرى من عينى[1].

قلبه: يا صاحبى.. أنا لا أنكر أننى أتعبتك معى، وحّملتك فوق ما تطيق. ولكن، ألا تثق فى أن قدرى هو قدرك وأن مآلى هو ذات مآلك فى اللوح المسطور، حكايتنا مدونة بأمر علىَّ قدير، نعيشها سطراً سطراً لا مفر من حكمها جملة وتفصيلاً.. كل حركة نأتيها وكل كلمة نحكيها، وكل قصة نرويها. وكل نظرة نتلقاها ممن همنا فى هواها، راضية كانت أو غافلة مرحبة كانت أو ساهمة، جميعها فى أم الكتاب قدر مسطور محتوم، فمن أين المفر وإلى أين المصير؟

هو: لا أنكر أحكام القدر.. ولا أنكر ما هو مسطور لنا أن نلاقيه، ولكننى أخشى عليك وعلىّ من توالى وتعدد ألوان هذا العذاب.

لم نعد يوماً من ملاقاتها إلا خفيضى الجناح، كسيرى الخاطر، زائغى النظرات من بعد حنو المواسى على اللهيف العفيف.

ولم يكن ذلك شأنك مع من هويت أو تعلقت من قبل قل حتى انفصم العقد بحكم ما كان مسطوراً ومدوناً.

ولست أعنى أنك كنت أسعد حالاً، لكنك كنت أقل شقاءً، وكنت أنا الآسى، والمواسى، ولست أنسى فى موقفنا هذا كلاماً عظيماً، مفاده: إذا عظم المطلوب قل المساعد، وهكذا فلن تجد غيرى من يمد لك يداً، لا ممن هويت إذا هويت، ولا ممن

(١) من أوراقه المطوية/ ١٩٧٩

يرى ما أنت فيه من بلاء، إن شكوت لصديق، لا يسعفك إلا بقوله:

صار جَداً ما لهوت به ... رُبّ جد جره لعب

قلبه: إننا نلف وندور من حيث بدأنا وصرنا كقارب فى بحر صاخب هائج فقد ربانه مجدافه، وتحطمت دفته، فاختل توازنه وراح يترنح ويدور يمنة ثم يسرة وهو لا يلوى على شىء، وقد افتقد المعين فأعياه نداء النجاة، بعد أن أوغل القارب وصاحبه فى ذلك البحر الطامى، الذى لا يرى له شاطئاً، ولا يبصر منارة تهديه، إن استطاع التقدم إلى بعيد أو قريب والموج لا يرحم الغريق!

وإنى لأعجب من أمرك وأنت الحكيم الأريب، أم تدرك، أم أنك تتجاهل، أن الغيد من النساء لهن لسعات النحل وشهده الشهى.

هو: نعم يا قلبى.. ما رأيتك مثل اليوم بليغاً فصيحاً ولكن هيهات أن تجدى فصاحة أو بلاغة فيما نحن فيه من عناء ونصب.

أنا مدرك لكل هذا وفوق هذا، ولا حيلة لنا فيما قسم وقدر إلا بالصبر، وإن كنت من المؤمنين بأن الصبر كلمة عسيرة النفاذ، عديمة الجدوى، غير مشمولة بالتحقيق:

ما أضيع الصبر فى جرح أداريه ... أريد أنسى الذى لا شىء ينسيه

وأنت يا قلبى، تفتحت مذ رأيتها، تفتح الزهرة لأنداء الصباح الصافية النقية، وكان ذلك أمراً مقسوماً ومقضياً ومصيبتى معك يا قلبى فى هواها، أنها سرت فى دمى، وجرت فى مسمعى، وتسللت إلى كل مشاعرى، فما رأيت زهرة إلا تصورتها، ولا غصناً إلا تمثلت تثنيها، ولا نغماً حلواً أغناً إلا شاقنى الحديث إليها، ولا نسيماً معطراً، إلا تنسمت فيه ذكراها ولم يسعنى إلا أن أقول لخيالها، يوم أن تسلل منها وزارنى فى فجر ليل طويل أمضيته ساهراً:

أيها الساكن عينى ودمى أين فى الدنيا مكان لست فيه؟!

القلب: ما دمت عالماً ببدايتنا ونهايتنا، ففيم تساؤلك ونصحك عما نصنع؟ وفيم رجاؤك فيمن لا رجاء من وراء ما ترجوه؟ دعنا نمضى فيما قسم لنا ولا مهرب مما خطه القدر؟ وإذا فزنا بلقاء، نعمنا فيه بنظرة أو لفتة، أو همسة، أو بسمة، إن هبط عليها جود أو لمست شغاف قلبها رحمة، فذلك فضل كبير، بعد عسر عسير، يمدنا بما يضمن لنا من العيش فسحة تمتعنا بما فيها من نشوة، وهناء نصطنعه، ما دام قد عز ما نتمناه، وحل بنا ما لا حيلة لنا فى قضائه:

وكيف أهرب ممن عاش فى بصرى فأينما التفتت عينى تلاقيه

وبعد أن أضنى الوجد أحمد عبدالمجيد، وعذبه الهوى، ولم يجد الصديق الذى يواسى قلبه المضنى، وأصبح يشعر كأنه ملاح فقد قاربه المجداف وسط بحر صاخب هائج لا يرحم لم يجد أمامه إلا أن يوجه ابتهالاته إلى الله فى ساعات صفو روحى، بكل ما جبل عليه من إيمان وقناعة ورضا بالمقسوم:[1]

يا إلهى أنت تدرى من وراء الغيب أمرى
فاستوى عندك سرى واستوى عندك جهرى
إن أكن أذنبت حسبى أننى أعلم ذنبى
وإلى ساحك أمضى والرضا يغمر قلبى
يسبق العفو سؤالى ورجائى وابتهالى
إن عفو الله باب واسع الرحمة عالى
كن شفيعى يا رسول الله يا نعم الشفيع

(١) من ديوان «نجوى» مخطوط/ قصيدة «ابتهال»

نحن من عز الشفاعة ... منك فى حصن منيع
كيف أعصى من هدانى ... خير شعرى ورعانى
كيف أعصى من حبانى ... كل ما ندّى لسانى
إننى يا رب إنسان ... وما كنت ملاكا
أنا من طين وإبليس ... ملاك وعصاكا
فى حنايا الصدر قلبى ... ساجد يعبد ربى
نبضه ذكر وتسبيح ... وتكفير لذنبى

وكان أحمد عبدالمجيد برغم سماحة نفسه، وعمق إيمانه وقناعته بقدره، يشعر أن سوء الحظ يلاحقه كما لاحق من قبله ابن الرومى وعبدالحميد الديب، فقد عاش ما عاش أكثر من ثلاثين عاماً كدبلوماسى فى شتى البقاع والأصقاع ولم يكسب مالاً من وراء ذلك، بل كان يبيع من أملاكه ليظهر بالمظهر اللائق بوظيفته الدبلوماسية.

وعاش حياته بلا ذرية لم ينجب وعذبته وحدته وافتقاده للحنان فى سنواته الأخيرة.

ورغم عطائه فى مجال الأغنية باءت كل محاولاته فى سنواته الأخيرة أن يتغنى بكلماته أحد كبار المطربين بعد أن تغنى الموسيقار محمد عبدالوهاب بأروع أغاريده فى العشرينيات بل كتب قصيدة رائعة لأم كلثوم لتغنيها لكن لم يتحقق أمله.

وقد أخرج على المعاش وهو مندوب مصر بجامعة الدول العربية فى مطلع عام ١٩٦١ وهو فى أوج عطائه وحيويته قبل موعد إحالته للمعاش بخمس سنوات لأنه كتب مذكرة سياسية للسلطات يبدى فيها وجهة نظره بصراحة فى السلبيات التى تعترض نجاح الوحدة العربية.

وعاش سنواته الأخيرة منذ ذلك الحين فى الظل لا يجد منبراً ينشر فيه خواطره

وأشعاره، ولا يجد من يغنى كلماته الرائعة إلا بضع أغنيات غناها محمد عبدالمطلب «السبت فات» وعادل مأمون «ميعاد» التى يقول مطلعها:

كل ما بتخلف ميعاد قلبى متلهف عليه
كل ما يهون البعاد اللى خد قلبى عليه

حتى عندما أحب لم يجد فى هذا الحب الرى الذى افتقده، والحنان الذى يبحث عنه بل تعذب طويلاً وتقلب على نيران الصدود والحرمان والغيرة وأفانين حواء فى التقلب والمراوغة.

وكان آخر لقاء صحفى قبل رحيله بيوم واحد أجرته معه الكاتبة الصحفية سلوى العنانى ونشر الحوار بعد رحيله.

وقد كتبت تقول وهى تغالب مشاعر الحزن والأسى لرحيله المفاجئ:[1]

«حادثته تليفونياً قبل وفاته بيوم واحد لأستكمل بعض المعلومات فى الحديث الذى كنت قد أجريته معه.. وأحسست الأسى فى كلمات شاعر الهمسات وذكر لى كيف أغفلت المذيعة اسمه وهى تقدم أغنية «كلنا نحب القمر» أثناء احتفالات عيد الفن الأخيرة وقال لى: الناس دائماً نسيانى.

حاولت أن أخفف من آلام الرجل الذى تعودناه رقيقاً كشعاع شمس الصباح، يملأ الحياة حوله دفئاً ونوراً لم يترك وراءه فى الحياة من يحملون اسمه ولكنه ترك بسمة حب واضحة فى قلب كل من عرفه من أصدقاء أو أبناء أو محبين.

عرفت اسمه أول ما عرفته من خلال أحلى ما غنى محمد عبدالوهاب «كلنا نحب القمر.. والقمر بيحب مين» و«خايف أقول اللى فى قلبى» و«مريت على بيت الحبايب»

(١) الأهرام/ ١٧ أكتوبر ١٩٨٠

و«حسدونى وباين فى عنيهم» و«مين عذبك بتخلصه منى» و«بالك مع مين» ولم أكن أعرف أن أحمد عبدالمجيد صاحب هذه الأغنيات الرقيقة هو نفسه أحمد عبدالمجيد صاحب ديوان همسات وهو فى نفس الوقت السفير أحمد عبدالمجيد الذى تنقل بين مختلف قارات العالم سفيراً لمصر ثم مندوباً دائماً لمصر فى الجامعة العربية حتى عام ٦١ حيث ترك العمل الحكومى وعاد إلى هوايته القديمة.. الكتابة والشعر.

وعبر رحلة السنوات الخمس والسبعين.. قدم أحمد عبدالمجيد للمكتبة العربية ثمانية عشر كتاباً بين مؤلف ومترجم تتنوع موضوعاتها بين دواوين الشعر والقصص والمسرحيات المترجمة والدراسات الدبلوماسية وأبحاث فى تفسير الأحلام.

وحديث صاحب «رحلة مع الظرفاء» ابتسامة طويلة.. وثقافة رفيعة.. وصمته تأمل عميق وفكر أصيل، قال لى:

«كان لقائى بعبدالوهاب صدفة. عن طريق أحد أصدقائى فى نادى الموسيقى الشرقى سنة ١٩٢٥. ولم أكن أتصور أن هذا الكلام قابل للتلحين. فقد كنت طالباً فى الحقوق وقتها. وكنت أسجل يومياتى وخواطرى فى كلام منظوم لمجرد التسلية وفى هذا اللقاء الأول أخذ عبدالوهاب منى «خايف أقول اللى فى قلبى» و«كلنا نحب القمر» وبعدها قدمت مجموعة أغان. وغنى عبدالوهاب منها حوالى عشرين مع مجموعة أخرى لمطربين آخرين أشهرها أغنية عبدالمطلب «السبت فات والحد فات» ولم يمنعنى من الاستمرار فى كتابة الأغانى إلا عملى فى النيابة.. فقد تصورت إنى أقف فى المحكمة أستجوب المتهم فيرد «خايف أقول اللى فى قلبى». كنت قد واصلت كتابتى للشعر الفصيح الذى بدأت معه منذ سن مبكرة جداً.

وأمنيتك التى لم تتحقق عبر رحلة هذه السنين؟

- كانت واحدة من أعز أمنياتى أن تشدو أم كلثوم بأغنية من كلماتى.. ورغم أنى

كنت من أصدقائها إلا أن الله لم يشأ أن يحقق لى هذه الأمنية ورحلت أم كلثوم ورحل معها آخر أمل لى فى تحقيق هذا الحلم.

ما رأيك فى مستوى كلمات الأغنية العربية الحديثة خاصة وأنك كنت رئيساً للجنة النصوص فى إذاعة القاهرة لفترة غير قصيرة؟

- لا ينكر أحد أن هناك عدداً كبيراً من المؤلفين الشباب الذين يضيفون كل يوم أثراً مضيئاً من الكلمات الرقيقة منهم: صلاح جاهين. والابنودى ومجدى نجيب. ومأمون الشناوى وغيرهم. إلا أن هناك عشرات المدعين الذين استطاعوا التسلل إلى الميدان وأشاعوا بين الجمهور حالة فقدان الذوق فظهر مجموعة من الذين استغلوا حب الناس لكل ما هو غريب وخفيف فقالوا

«أى كلام» فزادوا من انخفاض مستوى المستمع وأذكر أنى تقدمت «من باب المرح» باقتراح للإذاعة وقت أن كنت رئيساً للجنة النصوص بها لصرف «بدل عدوى» لأعضاء اللجنة حماية مما كان يصلنا من سطور يسميها أصحابها شعراً غنائياً وهو كلام لا يمت للشعر بصلة، فهو بلا وزن ولا قافية ولا موسيقى وليس به حتى ماء الشعر.

أنت صاحب مجموعة من أحلى وأرق وأعف أغانى الحب.. فأنت الذى قلت:

فأصون قلبى ذل سؤلك ... أن أراك فلا أراك
هذا نصيبى من هواك ... وصنع ما نسجت يداك

وأنت القائل:

وأدينى شايف بعينى ... كل اللى شايفه بعينه
والنسمة بينى وبينه ... تنقل لى شوقى لعينه

- الحب دفعات ربانية.. وهو علاقة قدسية والله هو الذى يدفع الإنسان إلى الحب.. هذا إذا كان حباً طاهراً.. وهناك قصة خيالية من الأدب اليونانى القديم تقول إن زيوس رب الأرباب خلق الناس أنصافا.. وراح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر إلى أن يلتقيا.

وقد يكون هذا اللقاء زواجاً أو حباً أو عشقاً.. وربما لقاءً فكرياً..

كيف تلقيت خبر هبوط الإنسان على سطح القمر وأنت القائل يوماً..

كلنا نحب القمر والقمر يحب مين

حظنا منه النظر والنظر راح يرضى مين

- فى الحقيقة كانت صدمة لى.. فقد خيبت الأقمار الصناعية والصواريخ أحلام الشعراء وحطمت خيالاتهم.. ولكننى لا أظن أن أحداً سيحاول أن يكتشف بديلاً لهذا المعلق فى فضاء الكون يلهمه شاعريته وخياله.. ربنا يعوض علينا.. رغم هذا.. وبعد انقطاع ٤٠ عاماً عن كتابة الأغنية.. عدت أكتب من جديد وغنت لى عفاف راضى أغنية للقمر.

لى ملاحظة.. هى أن الطابع الدبلوماسى يغلب على اجاباتك ويبدو أنك حريص على صداقة الجميع و«خايف تقول اللى فى قلبك»؟

- طبعاً صداقة الجميع مهمة بالنسبة لى.. ولكن لا تنسى أن المهنة أحياناً لها حكمها.. وأحياناً أجدنى «خايف أقول اللى فى قلبى».

فالدبلوماسى غير الفنان.. الدبلوماسى يتحدث باسم حكومته ويحرص على ألا يغضب منه أحد، أما الفنان فهو يعبر عن نفسه وأفكاره الذاتية بكلماته الخاصة بعيداً عن أى قيد.. حتى قيود الزمان والمكان.. بل وقيود الواقع التى كثيراً ما يحطمها محلقاً

فى عالمه الخاص.. وطبعاً لا وجه للمقارنة بين القيود الدبلوماسية وحرية الفنان.. ولكن الحمد لله.. أثرت الدبلوماسية على علاقاتى الشخصية ولم تؤثر على روح الفنان فى داخلى.. فأنا مازلت صادقاً فى عواطفى وكلماتى.

كان من الصعب أن أنهى حوارى مع صاحب أجمل كلمات الحب وكان سؤالى الأخير..

ما هى أحب أغانيك.. وبلغة الإذاعة «تحب تسمع إيه»؟

خايف أقول.. بصوت فيروز.. ولا تتصورى سعادتى وهى تشدو بها أثناء وجودها فى القاهرة

ولم تلتفت إليه الإذاعة ولا التليفزيون بإجراء حوارات معه، وعندما فكرت الإذاعة فى تسجيل برنامج عن مشوار حياته ليذاع فى البرنامج العام رحل عن الحياة فى نفس اليوم الذى ذهبت إليه مُعِدة البرنامج فى بيته، ولذلك قصة عجيبة تصور تصاريف القدر أدع الصحفية سلوى جمجوم التى كانت تعد هذا البرنامج ترويه تحت عنوان «لقاء لم يتم» قالت فيه:[1]

«مين عذبك» «بالك مع مين يا شاغل بالى» «كلنا نحب القمر» «خايف أقول اللى فى قلبى» وحوالى عشر أغانٍ أخرى من أجمل أغانى الموسيقار عبدالوهاب القديمة، كلما سمعناها مع اختلاف أجيالنا كلمنا ازددنا حباً لها، وشعرنا بأصالة الفن مجتمعة فى الكلمة والموسيقى والغناء، وللأسف ان الإذاعة كثيراً ما تتغاضى عن اسم المؤلف الذى هو فى الحقيقة بكلماته العظيمة مصدر الإلهام للموسيقى وربما لأنى من جيل لم يعاصر هذه الأغانى فى بدايتها، فقد عرفت بالصدفة أن هذه الأغانى العظيمة

(١) مجلة الكواكب/ ١٨ أكتوبر ١٩٨٠/ سلوى جمجوم/ لقاء لم يتم

لعبدالوهاب من تأليف فنان عظيم هو الشاعر أحمد عبدالمجيد.

ومع شوق عظيم للقائه كى أقدمه للقارئ كشاعر من أعظم مؤلفى الأغانى وفى محاولة لعمل تحقيق صحفى معه اتصلت به فى التاسعة صباحاً ودار الحديث التالى:

- أحمد بك عبدالمجيد موجود؟

- أيوه أنا أحمد عبدالمجيد.

- أنا «.....» وأريد أن أجرى معك حواراً عن الأغنية المصرية بجميع تفاصيلها. كذلك أريد أن أستعرض مراحل كفاحك كى أستفيد منها فى برنامج مشوار حياتى الذى أقوم بإعداده للإذاعة؟!

شىء عظيم والله يا ست سلوى ولكن مواعيدكم وحشة بتقولوا حتيجوا وما بيحصلش فأجيبه لأول مرة حتعرف صحفية مواعيدها زى الساعة، يوافقك الساعة السادسة مساء اليوم لأنى مضطرة أسافر العريش؟

- وهو كذلك أنا فى انتظارك.

وشعرت فى نبراته بالعتاب الشديد للصحفيين والإذاعيين وكان أول وأخر ما سمعت من الشاعر أحمد عبدالمجيد.

ففى نفس اليوم وفى الساعة السادسة تقابلت أنا وزميلى المصور على باب شقته، وخرجت سيدة فاضلة تتشح بالسواد وأبلغتنى بالخبر المفجع فلقد أخلف هو ميعادى وذهب لمن لا يستطيع أن يخلف ميعاده.

لأول مرة فى حياتى الصحفية أمر بهذه المحنة وتماسكت وأتممت اللقاء مع زوجة الراحل العظيم ومن بين كلماتها أدركت أهمية دورها فى إحساسه بالجمال والخير. وفى الوجود. وبإيمان شديد أحضرت لى أوراقه وفيها آخر ما كتبه استعداداً للقائى وكانت

هذه المفاجأة ففى وريقات صغيرة كتب ملخصاً لمشوار حياته أنقلها حرفياً وبأسلوبه.

«وفقاً لمثل إنجليزى مشهور «النشاط يبدأ بعد الستين» فأمنيتى أن أحقق ما حالت الوظيفة دون تحقيقه وقت أن كنت أعمل بالنيابة العامة أو بالسلك الدبلوماسى فقد كنت أصبو إلى صياغة الأغنية كما سبق ذلك - وكنت أهفو إلى جمع ذكرياتى فى كتاب، وكنت أرنو إلى أن أكتب فى كل اهتماماتى بدءاً بالسلك الدبلوماسى الذى كان يطغى على كل شىء عدا كتب «أضواء على الدبلوماسية» وسندباد دبلوماسى وقناصل الدول وأبحاث عن مشاكل سياسية عالمية كمشكلة برلين أو المضايق. ثم الكتابة للإذاعة فى البرنامج الثانى عن الدبلوماسية لدى مختلف الدول.

ولكتاب أضواء على الدبلوماسية قصة مع الأستاذ الكبير السيد بدير.

كانت الأغنية والمسرح الغنائى من أكثر المسائل التى تشغل بالى وتستأثر باهتمامى ومن هنا بدأت فى جمع مواد كتاب «لكل أغنية قصة» استعرضت فيه الأغنية والمسرح والتلحين والغناء فى مصر.

كذلك كان الشعر منذ الخامسة والعشرين من عمرى من اهتماماتى. ووجدت فى الوقت براحاً متسعاً للقراءة فى دواوين القدماء والمعاصرين ثم كتابة ما أتأثر به ويؤثر فى عاطفتى ووجدانى فألجأ إلى النظم وهكذا وجدت السبل مفتوحة أمامى لا جمع ما كنت أنظمه وأتركه مدوناً فى لوحات وكراسات خفت عليها من الضياع فبادرت بطبعها فى ديوانين صدرا وديوانين آخرين تحت الطبع.

كان أدب الرحلات من أشد فروع الأدب جذباً لى، كما أننى كنت من جانبى محباً «شغوفاً بهذا الفن الرفيع» ووجدت أن رحلاتى بحكم وظيفتى الدبلوماسية وبوضعى من المتعين عليهم أن ينطلقوا لا إلى الدولة التى أوفد إليها. لأمثل بلدى فيها، بل كنت أتوقف للارتحال إلى ما جاورها من بلدان كنت فى فلسطين وشددت

الرحال إلى السعودية وإلى لبنان وإلى سوريا.

وإذا كنت فى ألمانيا شددت الرحال إلى فرنسا وهولندا وبلجيكا والنمسا وهكذا فى كل ما حللت به من بلدان حتى تجمع لى قدر كبير من الذكريات.

ان هذه الرحلات لها الفضل فى فهم جوانب كثيرة من الحياة الإنسانية، وهكذا تسنى لى أن أصدر كتاب سندباد دبلوماسى. وشغلت مرات عديدة منصب القنصل حتى اكتملت لى معرفة علمية وعملية بكل ما يتعلق بهذه الوظيفة مما حملنى على أن أكتب كتاباً اسمه «قناصل الدول».

أما الترجمة فقد كنت شغوفاً ومحباً لها وتسنى لى أن أترجم لمؤسسة فرانكلين ثلاثة كتب ضخمة أولها عن الدبلوماسيين والدبلوماسية، والثانى عن فرنسا شعبها وأرضها وثالثها حقبة من تاريخ قدماء المصريين فى أسرتين فى صورة قصة طويلة بعنوان «تمثال المحارب» ثم ترجمت لدار الهلال كتاباً جمعت فيه قصصاً من الغرب قصيرة وطويلة.. بعنوان «ملك هوايته جمع الساعات».

وكنت فى نشأتى محباً للكوميديا المكتوبة والممثلين والساعية بأرجلها بيننا فى الحياة فى صورة الناس وأعمالهم وعلاقاتهم وما يتخلف عن ذلك من مجون ظريف ضعيف مهذب، وهكذا تسنى لى أن أكتب كتاباً أسميته «رحلة مع الظرفاء» جمعت فيه بعد دراسة فلسفية للضحك والمجون، كل، ما يتعلق بالكوميديا فى الشرق والغرب وأعلام النكتة وأئمة الفكاهة.

ولما كنت من القارئين فى الكتب التى تبحث عن الأرواح والأحلام بعد مراجعة أكثر من عشرة كتب فى الموضوع فقد ألفت كتاباً عن عالم الأحلام.

بين الحين والحين منذ تقاعدى عام ١٩٦١ والإذاعة والتليفزيون يتفضلان

بدعوتى لإلقاء حديث أو حضور ندوة، وقد التزمت بأن أعد نفسى قبل الحديث إعداداً كاملاً حتى لا أقول لغوا الناس فى غنى عنه.

والتأمل عند الكبار هو قراءة متصلة، فأنا إن جلست فى حديقة أو على شاطئ النيل سرحت بعقلى وبصرى وكل أحاسيسى إلى صنع الله لنتأمل مما أمرنا خلقه وإبداعه. وكان المصور الهولندى فإ جوخ لا ينقل نقلاً كاملاً من الطبيعة فما يراه تجسيداً ولكنه ينقل ما يختزن فى ذاكرته من الطبيعة نفسها من مناظر رآها واستوعبها فيعكسها على ما يرسم ليس طبقاً لما رأى ولكن تطبيقاً لما أحس به.

والعمر الطويل كثير العطاء وطويل النفس - نضرب مثلاً بجيته الذى كتب أروع ما كتب من الشعر بعد الثمانين وبرناردشو كانت أعماله التى لا تزال حية نابضة بالحياة بين السبعين والتسعين والعقاد الذى ترك أكثر من مائة كتاب. وتوسكانين الذى له قصة عميقة السخرية بمن يقلل من قدرة كبار السن عندما طلب منه مدير المسرح الذى كان يقود الأوركسترا به بمناسبة بلوغه الثمانين وإقامة حفلة لهذه المناسبة توقيع عقد لسنة أخرى فرفض فقال المدير هل أفهم أنك لا تستطيع أن تعمل عاماً آخر.

فقال توسكانين ساخراً بل أريد عقداً بعشر سنوات.

وقد يكون السن المرتفع حافزاً ودافعاً لصاحبها فى باب التحدى للجيل الجديد. أن يحسن ما يعمل ليتفوق وينجح فيما يفشلون فيه ولم تكن الأمراض يوماً عائقاً عن عمل كبار السن فإنهم يروون أن الفيلسوف شوبنهاور الشهير بتشاؤمه كان يراسل صديقاً أديباً معروفاً تخصص فى أدب شوبنهاور وقد لاحظ هذا الصديق أنه فيما احتواه من مضمون وأفكار وفلسفة وأسلوب أقل مستوى مما كان يلاحظه فلما بعث بملاحظته هذه لشوبنهاور أجاب عليه بكتاب جاء فيه: «قمت فى صباح ذلك اليوم الذى حررت إليك فيه هذه الرسالة وأنا أشعر بصحة دافقة وتلسمت ألماً واحداً أو

داء مما كنت أشكو فلم أجد فجاءت كتابتى إليك على مثل ما رأيت وشوبنهاور هذا متشائم إلى حد أن قال: إن الحب وردة والمرأة شوكتها. ولعله الوحيد الذى آمن بهذا ولعلى لا أنسى أننى نشأت عليلاً وقضيت حياتى وشبابى وفتوتى وأنا والأسقام من عوادى. ولما بلغت الشيخوخة وجدت إنى بالاعتدال والخوف الدائب فى كل نسمة أو حتى بسمة فى خدمة تصحيح ما كان معوجاً فى صحتى. وقد كتبت أيام أمراضى ثنائيات نشرتها فى ديوان «أوراق الخريف»:

ضاع عمرى على وساد سقامى فهب داء أراه بالجسم هائم

ولذلك فليست العبرة فى أن تعيش طويلاً ولكن صحيحاً حتى تستطيع أن تعمل وتقاوم.

كانت هذه الكلمات آخر ما كتب الفقيد الراحل استعداداً للقائى.. ولعل خير ما اختتم به الكلام هو ما قاله عن الرسول ﷺ:

خير البرية حسبى أننى نفر
إلى دينك الحق مشفوع له الزلل
الخير والبر قاما يوم مولده
واليوم عيدك بدء الخير والأمل

***

ومضت حياة أحمد عبدالمجيد خلال العام الأخير من حياته عام ١٩٨٠ يكابد اللوعة، والحرمان، والظمأ، للحب الصادق، والحنان الدافق، والقلب الرحيم الذى يواسيه ويخفف عنه.

لقد أعجب بملهمته المثقفة بجمالها الشامخ وحديثها العذب الطلى، وبذكائها

وأنوثتها الغامرة فأحس أن تأثيرها قوى فى كيانه، وخيل إليه أن كل ما حوله ينطق بحديثها ويتجسم فى صورتها، فى يقظته ومنامه.

استولت عليه وتمكنت منه، فسهر وسهد، وغار، وغضب من صدودها وبعدها عنه، لأن ظروفها الاجتماعية حتمت عليها التحفظ لأنها زوجة وأم تعيش فى مجتمع محافظ رغم ثقافتها وسعة أفقها، لكنه كان يأمل أن تملأ حياته وتعوضه سنوات الجفاف والحرمان بعد أن أحيل للتقاعد، وتفهمه كأب افتقد الأبوة ويحتاج للحنان والعطف والحب الصادق، وفى وسط عذابه، وسهاده وتخبطه حاول أن ينساها ويتحرر من حبها الغلاب ويقهر ضعفه حيالها، لكنه كان ينهزم أمام طيفها، وهمسات صوتها الذى كان يطارده فى صحوه ومنامه، فينتابه ما يشبه الصداع والاحباط، فيمسك بقلمه ليكتب قصائد يبثها فيها مشاعره، فمرة يجعلها ملاكاً سامياً وطيفاً نورانياً يملأ حياته نوراً وبهجة، فيستعذب عذابه فى حبها وضناه فى صدودها وإعراضها عنه، ومرة أخرى يئن بالشكوى من تعذيبها له وتنكيلها بأعصابه، وفى كلا الحالين كان مستسلما لطيفها، لا يعرف الراحة ولا السلوان!

ولم يستطيع هذا القلب الحساس الرهيف أن يصمد طويلاً أمام هذا الصراع الحاد الذى دمر أعصابه وأنهك قواه، وجعله كالطائر الجريح الذى يتخبط فى شراك أوهام الحب وسرابه لقد عذبه هذا الحب ومزقه، فتناثرت شظاياه قصائد شجية آسية مملؤة بالوجد والهيام والعذاب، لكن طبيعة حواء بتلونها لم تدرك أن مثل هذا القلب الحساس الصادق لا يستطيع تحمل آثار المناورة، تلك المناورات والمداورات وفنون الدلال، فكانت الحيرة وكان الشك، ثم كان هذا الانهيار الكبير ففارق الحياة وهو مكلوم القلب، حزين الروح، معذب النفس، فسرعان ما انهار هذا القلب العاشق وفارق الحياة فى ١٠ أكتوبر عام ١٩٨٠ وعلى شفتيه ابتسامة صافية وكانت آخر

همساته قبل أن يودع هذه الحياة إلى الملهمة التى عذبته وأضنته:

أنـا لست أطمع فى فكاكى ... مـن شـبـاكـك أو أذاك

وعــلام والـدنـيـا تمـد إلىّ ... أسـبـاب الهـلاك

وبعد رحيله وجدت على مكتبه قصيدة لم يكملها كانت من وحى ملهمته التى أحبها بكل الصدق والوفاء، لقد صنع من ملهمته تمثالاً رائعاً خلع عليه أحلام قلبه المشبوب، وآمال روحه الظمأى إلى الحب المثالى المنشود، وشرع بطبيعته المرهفة، وقوة مخيلته، وسعة أفق تصوره يرتل فى محرابها أجمل أناشيد الحب والتقديس فكان يراها فى نفسه، وفى وحيه، وفى شعره، وفى شتى مظاهر الطبيعة، وطيفها ما يفتىء يطارده فى صحوه ومنامه.

وكانت «سلوى» معجبة بعمق تفكيره، وغزارة ثقافته وحبه النادر المثالى لكنها كانت فى ذات الوقت يغلب عليها الطابع العقلانى الواقعى الذى يرتبط بالعادات والتقاليد الشرقية، وطبيعة ظروفها العائلية.

ولكن شاعرنا الرومانسى الحالم المحتاج للحب والحنان ظل يرسل أناشيد الحب والجمال، ويدبج عشرات الرسائل المفعمة بعاطفته الفياضة، وليس أمامه سوى ملهمته، يرتل لها تلك الأناشيد وكان همه الدائم:

نـاجـيـت طيفك خاشعاً ... ونداى فى سمع الدجى ترتيل

وفجأة شعر أنه قد ضيع فى الأوهام عمره، وأن أناشيد الوجد والحب التى رتلها فى محراب ذلك التمثال البديع لملهمته المثالية ليس إلا مجرد سراب، وأن ذلك الحب الموهوم هو الذى قضى عليه وقتله بعد أن عذبه طويلاً وأصلاه ناراً حامية على جمر الشك والغيرة وتلون المرأة وواقعيتها الباردة، فلم يستطيع قلبه الخفاق الحساس

أن يتحمل قسوة الصدمة بعد أن أحبها كما يتعلق الغريق بحطامه المنشود، وفى قلبه حب جارف نبيل لا يكاد يضرمه الأمل حتى يخمده تلونها وتقلبها المستمر، فأصابته الطعنة فى قلبه الحساس، وأصبح تائه الفكر، مشبوب الحواس، ينادى أمله المنشود دون جدوى، ويذكرها ويرتل فى محرابها، وكما ينشد الغريق ملمس الحطام، ولكن تعذيبها له وإذاقته ألوان الهجر والصدود كسر قلبه، فهام بالصمت، وكلف بالوحدة، وانكمش وانطوى على نفسه، وطفق يقرض الشعر كمن يشرب الخمر، يخلق لنفسه عالماً خيالياً رائعاً فيه صورة جميلة لطيف الحبيبة المنشودة.

واستبد به طيفها، راوده وأذهله وسحره ولكنه أفاق من حلمه الجميل فلم يجد أمامه وحوله سوى السراب الفاجع فتهاوى وفارق الحياة وهو يرتل أنشودة الحب والوفاء!.